الهيئات الدينية الصليبية ودورها في بلاد الشام.
(من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادي).

د.محمد علي إسماعيل. **أ.فاطمة إبراهيم طرينه.**
د.عبدالله سالم بازينه. **أ. محمد البيطه** (باحث دراسات عليا).
العناوين: أعضاء هيئة تدريس كلية الآداب |(بقسم التاريخ) _ جامعة مصراتة، ليبيا.

استلمت الورقة بتاريخ 2021/04/20
وقبلت بتاريخ 2021/5/28
ونشرت بتاريخ 2021/08/15

الكلمات المفتاحية:
الاسبتارية، الدواية، التيوتون، البندكتية، جيرارد.

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد،،،

فقد عرف الحجاج المسيحيون الأماكن المقدسة في المشرق الإسلامي منذ وقت مبكر وخاصة في بلاد الشام، فعندما ظهرت الديانة المسيحية في الشرق خلال القرن الأول الميلادي وعبرت إلي غرب أوربا، أصبح الحج المسيحي إلى بيت المقدس من الممارسات الدينية التي نمت نمواً شبه عضوي منذ ظهور هذه الديانة وانتشارها، فقد سعت الكنسية إلى تحويل حماسة رجال الدين والرهبان إلي نشاط يجلب رضا الرب_ حسب معتقدهم_ الأمر الذي ترتب عنه ظهور هيئات دينية ذات طابع إنساني خيري، هدفها تقديم المساعدات للحجاج المسيحيين، فضلًا عن الاهتمام بالجنود الصليبين ومعالجتهم ورعايتهم، إلا أنه بمرور الوقت انحرفت هذه الهيئات الدينية عن مبادئها الأساسية؛ لتتحول إلى مؤسسات عسكرية، ومالية، حظيت بدعم ملوك أوروبا وقادة الحروب الصليبية؛ واتجهت الكنيسة لمباركتها وتأييدها في حروبهم ضد المسلمين؛ لتسهم في استمرار وتثبيت الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي.

المقدمة:

بالرغم من نذرة رحلات الحجيج للأماكن المقدسة في أيام المسيحية الأولى؛ بسبب عدم تشجيع السلطات الرومانية عليها، فضلاً عن حملات الاضطهاد والتعذيب التي شنها أباطرة الرومان ضد معتنقيها؛ إلا أنه بإصدار الإمبراطور قسطنطين الكبير[1] لمرسوم ميلان 313م، ازدادت حركة الحج المسيحية نحو الأراضي المقدسة؛ فضلاً على أن الكنيسة كانت أحد عوامل ظهور السلطة الملكية، ففي القرن الحادي عشر الميلادي، أوشكت البابوية أن تنزلق في مستنقع الصراع الدائر في إيطاليا، لذلك ناضلت من أجل تثبيت أقدامها على عرش الكنيسة الغربية، وانتزاع قدميها من خطر السقوط، بدعم قوافل الحجيج المسيحي للمشرق الإسلامي، وتوفير الحماية لها من كافة المناحي؛ للوقوف عن كثب على الأصقاع التي شهدت مولد المسيح-عليه السلام-ونشأته وظهور رسالته؛ لتطهير الروح وخلاصها من الذنوب، بالصلاة، والعبادة، وتقديم العطايا والهبات.

من الملاحظ أنه حتى بعد ظهور الإسلام، والفتح الإسلامي لهذه المناطق في القرن السابع الميلادي، لم يجف نهر رحلات الحجيج المسيحي بين غرب أوروبا والأماكن المقدسة في المشرق الإسلامي؛ نظراً لتعاطف الخلفاء والحكام المسلمين اتجاه هذه الرحلات الدينية، وبما أن هذه الرحلات غالباً ما تكون تحت حماية البابوية ودعمها؛ الأمر الذي ترتب عنه ضرورة وجود عدد من الرجال الدين من رهبان، وقساوسة، والأساقفة ضمن فرقة الحجيج المسيحي؛ لحراستها وحمايتها، بالإضافة إلى تقديم كافة المساعدات والخدمات الطبية لها؛ لتسفر بمرور الوقت عن وجود جماعات أو هيئات دينية متخصصة للقيام بهذه المهام؛ و يشترط تواجدها بشكل دائم مع هذه الرحلات المسيحية.

وتكمن أهمية الدراسة في التعرف عن قرب على الهيئات الدينية الصليبية من حيث نشأتها، وأنظمتها، ونموها وتطورها، ودورها في بلاد الشام، وكيف نجحت هذه الهيئات في الجمع بين الجانب الروحي الديني، والجانب العسكري، فكانت ملجأ ومأوى للعديد من رجال الدين والنبلاء الذين حاولوا الجمع بين حياة العبادة، والزهد، وحياة الحرب؛ للحصول على الغفران.

[1] قسطنطين الكبير ولد سنة (274-337م)، وهو ابن قسطنتيوس كلورس، أصبح إمبراطور لروما عام 306م، وهزم خصمه ماكسانس على أبواب روما عام (312م)، وقد أطلق الحرية للدين المسيحي بموجب مرسوم أصدره في مدينة ميلانو 313م، في حين أن قسطنطين قد اعتنق المسيحية عام 312م، وأسس مدينة القسطنطينية؛ واتخذها عاصمة له في عام 330م. يُنظر: كمبي، جان، الدليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ط2، دار المشرق، (بيروت، 2002)، ص94.

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الدور الكبير والجهد الضخم الذي قدمته هذه الهيئات الدينية المسيحية؛ لحماية الوجود الصليبي في بلاد الشام، والذود عنه، ومجابهة الجيوش الإسلامية وصد هجماتها، الأمر الذي ساعد على استمرار هذا الوجود في المشرق الإسلامي ما يقارب من قرنين ونيف من الزمان.

أما فرضية الدراسة فهي كالآتي:

أسهم تحول الهيئات الدينية الصليبية من مؤسسات دينية ذات طابع روحي تطهيري هدفها تقديم المساعدات للحجاج والمرضى المسيحيين وحمايتهم طوال طريقهم لزيارة بيت المقدس إلى مؤسسات عسكرية حربية، ومالية، مصرفية؛ في تأخر الخروج الصليبي من المشرق الإسلامي إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

وتعالج الدراسة الإشكالية الآتية:

ماهية الهيئات الدينية، وطبيعة التحول الطارئ عليها، ودورها في حفظ الوجود الصليبي واستمراره. من خلال طرح التساؤلات الآتية:

-ما أهم الهيئات الدينية؟ وكيف تأسست؟ ما أهدافها؟ مم تتكون؟ وما مبادئها؟ وما طبيعة الدور الذي لعبته هذه الهيئات الدينية في أول نشأتها(بدايتها)؟ ما التغييرات التي طرأت عليها؟ ما النتائج المترتبة عن هذا التغيير؟

أما عن **منهج الدراسة** فتعتمد على المنهج التاريخي من خلال سرد الأحداث التاريخية، بعد قراءتها وجمعها من مادتها المصدرية؛ بغية تحليلها في محاولة لفهمها، وتأويل ما غمض منها للوصول إلى نتائج علمية مقنعة ورصينة.

وخصصت هذه الدراسة للحديث عن أهم الهيئات الدينية الصليبية، التي لعبت دوراً مهماً لدعم الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي وهي:

أولاً: هيئة الاسبتارية (Hospitallers):

جماعة من رجال الدين المسيحيين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الحجاج الوافدين إلى بيت المقدس إذ كان ملجأ الاسبتارية في بيت المقدس يتسع لألف حاج، ومن ضمن الأعمال الخيرية التي كانت تقوم بها الهيئة إسعاف المرضى المسيحيين، ورعاية الحجاج الفقراء[1] ويعود بدايات تأسيسها إلى عام (440ه/1048م) عندما طلب جماعة من تجار مدينة أمالفي[2] الإيطالية من الخليفة الفاطمي المستنصر[3] أن يسمح لهم بإنشاء بيمارستان (Hospital) بالقرب من مدينة بيت المقدس؛ لتقديم العلاج للحجاج النصارى أثناء زيارتهم للمدينة[4] وبعد النظر في طلب هؤلاء التجار استجاب الخليفة الفاطمي لذلك المطلب، وأصدر كتاباً إلى والي بيت المقدس مطالباً إياه بتخصيص مساحة من الأرض في القسم الذي يقطنه المسيحيون وأسسوا عليه ديراً أرسلوا إليه من مدينة أمالفي أسقفاً وبعض القساوسة للإشراف عليه[5] أطلق على أفراد هذه الهيئة اسم فرسان المستشفى التي عُرفت باللغة العربية باسم الاسبتارية[6].

يرجع الفضل في تطوير هذا المستشفى إلى جيرارد (Gerard)[7] الذي لقب بلقب حامي فقراء المسيح لقيامه بأعمال خيرية تجاه الفقراء المسيحيين، وظل المستشفى طوال مدة وجوده يعمل على رعاية المرضى والفقراء، وأثناء قيام الصليبيين باحتلال بيت المقدس عمل جيرارد على مساعدة الصليبيين الذين هم خارج أسوار المدينة، غير أن الحراس

---

(1) عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 2010م)،390/1|؛ سالم، السيد عبدالعزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، (الاسكندرية، 1966) ص212.

(2) امالفي: مدينة إيطالية تقع ما بين البحر والجبال الشاهقة، وكانت أمالفي مرفأ إيطالياً تابعاً لمملكة نابولي في تلك الفترة، وعلى بُعد سبعة أميال من المدينة توجد مدينة سالرنو، ويعتبر الأمالقيون أول من حمل إلى الشرق بضائع لم تكن معروفة لديهم.الصوري، وليم،تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: حسين حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة1991-1994م)، 387/3؛ بنيامين، التطيلي، بنيامين بن بونة التطيليالنباري، رحلة بنيامين، ترجمة: عزاز حداد، منشورات المجمع الثقافي، ط1، (أبوظبي، 2002م)، ص206؛ المطوي، محمدالعروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط2، (تونس، 1982م)، ص96، هامش3.

(3) المستنصر: أبو تميم معد المستنصر بالله بن أبي الحسن على الظاهر لإعزاز دين الله، ولد في مصر عام (420ه/1029م) تسلم مقاليد الخلافة بعد وفاة والده عام (427ه/1038م) وله من العمر سبع سنوات وأشهر، وكان عادل حسن السيرة محبوباً من الرعية، وتوفي سنة (487ه/1094م)، ودامت خلافته ستون عاماً وأربعة أشهر. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة المتنبي، (القاهرة، د.ت)، ص128؛ ابن كثير، أبوالفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، دار المعارف، (بيروت، 1991)،12 /39.

(4) المطوي، المرجع السابق، ص97.

(5) دويل، أودو أوف، رحلة لويس السابع إلى الشرق (ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية) ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، 1995م) 190/7؛ الصوري،تاريخ الحروب الصليبية، 338/3، 398.

(6) عمران، محمود سعيد، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، (القاهرة، 1998م)، ص112.

(7) جيرارد: بلده الأصلي غير معروف، ويعتقد بعض المؤرخين الغربيين أنه ولد عام (1040م) بفرنسا في إقليم بروفانس، ويعتقد البعض الآخر أنه من قرية سكاله الواقعة بالقرب من مدينة أمالقي بجنوب إيطاليا، كان راهباً ونذر نفسه لخدمة المرضى الحجاج المسيحيين. يُنظُر: الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 391/3؛ سليماني، سامية، النشاط الصليبي لهيئة الاسبتارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، العام الدراسي 2001/2000م، ص8؛ مقامي، نبيلة إبراهيم، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة، 1994 م)، ص11.

المسلمين، أحسوا بتحركاته وألقوا القبض عليه، وبقي مسجوناً حتى أطلق سراحه بعد استيلاء الصليبيين على المدينة وذاع صيته بعد ذلك، وأصبح مستشفاه فيما بعد محل ثقة الصليبيين[1].

وبعد أن انتهت الحملة الصليبية الأولى، واستقر الصليبيون في بيت المقدس، عاد كثير من المشاركين في الحملة إلى بلدانهم في الغرب الأوروبي ونقلوا إلى مجتمعاتهم أخبار الهيئة وما قدمته من نجاحات في علاج المرضى أثناء مصاحبتهم للحملة الصليبية الأولى، فانهالت عليها المنح من جميع البلدان الأوروبية في صورة أراض ومنازل[2]، كما أن كثيراً من كنائس بيت المقدس خصصت عُشر دخلها لدعم الهيئة[3]، كل ذلك أعطى شهرة للهيئة، وحظيت بدعم كبير كبير من قبل ملوك المملكة الصليبية الأوائل، كما حظيت بدعم من قبل الكنيسة، ففي عام (505ه/1112م) أعفى بطريرك بيت المقدس الاسبتارية من دفع ضريبة العشور الكنسية[4]، وأصدر البابا باسكال الثاني[5](Paschalis II) مرسوماً في عام(506ه/1113م) يعترف فيه رسمياً بالهيئة الجديدة، ووضعها تحت رعاية البابوية مباشرة في روما[6] ويعد هذا المرسوم اعترافاً حقيقياً من قبل الكنيسة لتأسيس هيئة الاسبتارية وبمقتضاه نالت الهيئة حماية البابوات، ومنحتهم ممتلكات في الشام وأوروبا وأعفوا من الضرائب[7].

تبنى أعضاء هيئة الاسبتارية ثلاثة مبادئ أساسية أقسم أعضاؤها على التمسك بها مدى الحياة وهي العفة، والفقر، والطاعة[8] وهي الأسس التي قام عليها النظام الديري البندكتي[9] السائد في غرب أوروبا آنذاك، وكان من الطبيعي أن يتخذ أعضاؤها تلك المبادئ منهاجاً لسلوكهم، لأن الهيئة كانت منذ نشأتها من مفرزات الحركة الديرية البندكتية؛ لذلك اصطبغ نظامها بصبغة تعد انعكاساً للحياة الدينية الموجودة داخل الأديرة البندكتية[10].

أما من حيث التنظيم الطبقي ينقسم أعضاء الهيئة إلى ثلاث طبقات:

طبقة الفرسان: يشكل الفرسان أهم طبقات الهيئة وأكثرها عدداً، ويقع على عاتقهم عبء الحرب وإدارة بيوت المرضى، ويتم اختيار المناصب الإدارية العليا في الهيئة من طبقة الفرسان، ويشترط للانتماء لهذه الطبقة أن ينحدر الشخص من أصل نبيل، وعادة ما كان هؤلاء الفرسان لا يرتدون ملابس أنيقة ولا يغتسلون إلا نادراً[11].

طبقة الخدم: وتختص هذه الطبقة بالأعمال اليومية الخدمية داخل الدير أو المستشفى ولا يشترط للشخص المنتمي لهذه الطبقة أن يكون من أصل نبيل[12].

طبقة الوعاظ: وتختص هذه الطبقة بالخدمات الدينية بالهيئة[13].

أما من حيث الشروط الواجب توافرها في الشخص المنتسب للهيئة فهي على النحو الآتي:

1. أن يكون من أبوين محترمين أي من زواج شرعي، وأن يكون منتمياً إلى طبقة النبلاء(فيما يخص طبقة الفرسان).
2. أن يكون ذا صيت حسن ولم يمارس عملاً يسيء للأخلاق العامة.
3. أن تكون اللياقة الصحية للعضو المنتسب بحالة جيدة.
4. تمنع الجماعة الأفراد الذين ينحدرون من أصل يهودي أو روماني أو مسلم من الانتساب إليها [14].

---

[1] مقامي، المرجع السابق، ص12؛ سليماني، المرجع السابق، ص8؛ الحويري، محمود محمد، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، (القاهرة، 1979م)، ص56.

[2] الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، ط1، (عمان، 1998 م).ص89؛ دويل، المصدر السابق، 193/7؛ الحويري، المرجع السابق، ص58.

[3] عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص113.

[4] الحويري، المرجع السابق، ص58.

[5]باسكال الثاني: انتخب في أغسطس عام (492ه/1099م) بابا للكنيسة خلفاً للبابا أوريان الثاني، وكان شديد التمسك بمبادئ جيرجوري السابع وآرائه، أصدر عام (506ه/1113م) مرسوماً يقضي بوضع الاسبتارية تحت رعاية البابوية، وأكد بشرعية هذه الطائفة والتي عرفت باسم فرسان المستشفى. يُنظُر: عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، (بيروت، د.ت)، ص320.

[6] مقامي، المرجع السابق، ص14.

[7] الحناوي، مصطفى محمد، الفرسان الاسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، مكتبة الرشد، (الرياض، 2004م)، ص104.

[8] مقامي، المرجع السابق، ص14.

[9]وضعه القديس بندكت النورسي عام 529م، بعد أن اطلع على الأنظمة الديرية في الشرق، وتمكن من الوقوف على مساؤها وعيوبها، فحاول أن يضع نظاماً يتلاءم مع الطبيعة الإنسانية؛ ويجمع بين العمل والعبادة، فضلًا عن ضرورة الالتزام بفضائل الأخلاق وتعاليم المسيحية، قام هذا النظام على أربعة أركان أساسية هي: الفقر، العمل، الطاعة العمياء، إنكار الذات والطهارة، بذلك انتشر في معظم أجزاء الغرب الأوروبي، ونال عطف البابوية ودعمها وتأييدها، يُنظُر: العريني، السيد الباز، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، (بيروت، 1986)، ص170؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، ط6، (القاهرة،1991)، 180/1-186.

[10] الحناوي، المرجع السابق، ص111.

[11] الحويري، المرجع السابق، ص60.

[12] نفسه، ص15.

[13] الحناوي، المرجع السابق، ص114.

[14] سلمياني، المرجع السابق، ص11.

بعد أن تنطبق الشروط على العضو المنتسب للهيئة يُعمل له احتفال شبيه بالاحتفال الذي يُعمل عند التتويج، ويقوم رئيس الهيئة بوضع العباءة على كتفي العضو المنتسب وبذلك يكون العضو التحق رسمياً بالهيئة ولا يحق له الالتحاق بهيئة دينية أخرى أو الرجوع للحياة المدنية[1].

أما بالنسبة للزي الرسمي أو اللباس الذي كان يرتديه جماعة الاسبتارية فهو رداء أسود طويل مشقوق من الدراعين ليساعد حركة اليدين، منقوش عليه صليب أبيض له ثماني زوايا مطرزاً على الرداء من الجهة اليسرى، كما كان محارب الاسبتارية يرتدي قلنسوة على رأسه بالإضافة إلى معطف أطرافه من نفس اللون [2].

تمتعت هيئة الاسبتارية بتنظيم إداري محكم وكان على رأس هذا التنظيم:

- **السيد الكبير:** يسمى أيضاً بمقدم الهيئة وهو يمثل السلطة التنفيذية فيها، وينتمي هذا السيد إلى طبقة الفرسان وعلى الرغم من سلطاته الواسعة لكن قراراته كانت مقيدة بموافقة أعضاء الهيئة[3].
- **المارشال:** ومن المهام الموكلة إليه الإشراف على الشؤون الحربية وتوفير حاجة الفرسان من الجياد والأسلحة[4].
- **الاستباري:** ومهمته الإشراف على الشؤون الطبية داخل المستشفى وتوفير الأدوية للمرضى، ويخضع له جميع الأطباء والعامليننبالمستشفى[5].
- **وكيل الخزانة:** وهو المسؤول عن أموال الهيئة وتوزيعها على المحتاجين لها من الفقراء وتحقيق احتياجات المرضى[6].
- **التركبولي:** ويتنسب أعضاء هذه الفرقة إلى غير العاملين بالمستشفى التابعة لهيئة الاسبتارية، ويعد التركبولي أخاً لجماعة الاسبتارية ويخضع لأوامر المارشال، وقد لعبت فرقة التركبولية دوراً مهماً في محاربة المسلمين، وعادة ما كانت توكل إليهم مهمة الاستطلاع[7].

تحولت هيئة الاسبتارية إلى هيئة عسكرية ذات نشاط حربي، بعد أن استمرت لعدة سنوات من نشأتها ذات نشاط خيري إنساني، تهتم بمعالجة المرضى ومساعدة الفقراء والمحتاجين[8].

وقد لجأ الصليبيون إلى هذا التحول لأن المملكة الصليبية كانت في حرب دائمة مع المسلمين، وهي في أمس الحاجة إلى جيش قوي يمكنها من تثبيت وجودها، والدفاع عن مكتسباتها[9]، ومن الأسباب التي دعتهم إلى ذلك أن الفرسان الجدد الذين التحقوا بالهيئة لم يتعودوا حياة الرهبنة التي ميزت الهيئة في بداية نشأتها؛ بل تطلعوا إلى حياة الفروسية التي تتلاءم مع طبيعتهم الإقطاعية، أما السبب الثاني لهذا التحول فهو الرغبة في منافسة هيئة الداوية التي كانت ذات طابع عسكري منذ نشأتها الأولى، وحازت على رضا البابوية الأمر الذي أدى بالاسبتارية أن تنحو هذا المنحى من أجل الحصول على ذلك الرضا والفوز بامتيازات الكنيسة [10].

وكان لتحول الاسبتارية إلى العمل العسكري إلى جانب الداوية والتي كانت عسكرية منذ نشأتها الأولى بالغ الأثر في تثبيت الوجود الصليبي في الشرق، إذ كانت تلك الهيئات بمنزلة حملة صليبية تتجدد بانتظام ودون توقف[11]، وكانت كل هيئة من هذه الهيئات العسكرية تشكل جيشاً ملحقاً بجيوش المملكة الصليبية ومرتبط بالكنيسة وظيفته حماية الأراضي المقدسة ومحاربة المسلمين في كل مكان[12].

---

(1) الحناوي، المرجع السابق، ص115.

(2) مقامي ، المرجع السابق، ص14؛ الحناوي، نفسه، ص119.

(3) مقامي، نفسه، ص142.

(4) الحويري، المرجع السابق، ص62.

(5) المرجع نفسه، ص62.

(6) سليماني، المرجع السابق، ص21.

(7) سميل، ر، سي، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ترجمة: محمد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، ط1، (دمشق، 1985م)، ص181؛ سليماني، المرجع السابق، ص22.

(8) السرحان، موضى بنت عبدالله، تنظيمات الصليبيين في مملكة بيت المقدس وأثرها على أوضاعهم في بلاد الشام، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط1، (الرياض، 2006 م)، ص 405.

(9) بريدج، انثوني، تاريخ الحروب الصليبية والشرق اللاتيني، ترجمة: أحمد غسان سباتو واخرون، دار قتيبة، (دمشق، د.ت)، ص 142-143.

(10) عبدالعزيز، فتحي السيد، أشرف صالح، الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية، دار ناشري للنشر الالكتروني، ط1، (الكويت، 2013م)، ص91؛ مقامي، المرجع السابق، ص28، 29.

(11) مقامي، المرجع السابق، ص15.

(12) السرحان، المرجع السابق، ص409.

وقد نجحت مملكة بيت المقدس في الاستفادة من هذه الهيئات العسكرية، وكانت أولى معاركها ضد المسلمين في عام(543ه/1148م) حيث اشترك فرسانها مع جيوش الحملة الصليبية الثانية[1].

كما لعبت الهيئة دوراً مهماً في حصار مدينة عسقلان الذي استمر لعدة أشهر حيث قدمت الهيئة مساعدات مهمة للجيش الصليبي الذي تمكن من احتلال المدينة عام (549ه/1153م) [2].

ولم يقتصر نشاط الهيئة الحربي على محاربة المسلمين في بلاد الشام فقط بل تطلعت إلى أبعد من ذلك حيث ساندت الهيئة الملك عموري الأول في جميع حملاته على مصر في المدة من (559-564ه/1162-1168م)[3] كما قامت هيئة الاسبتارية أيضاً بالتحالف مع الملك بلدوين الرابع عام (574ه/1178م) لصد هجوم قام به جيش صلاح الدين واستطاعت القوات الصليبية هزيمة المسلمين بالقرب من مدينة الرملة، غير أن صلاح الدين استطاع الرد على تلك الهزيمة في عام(575ه/1179م) وانهزم الصليبيون وأسر مقدم الاسبتارية وعدد من بارونات بيت المقدس وعكا. [4]

وبعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس في 27 رجب عام (583ه/12 أكتوبر1187م) سمح لأهلها بالخروج إلى إمارة طرابلس، أما الاسبتارية فقد حملوا معهم وثائقهم وكنوزهم واستقروا بعد ذلك في حصن المرقب[5] وقد استولى خلال الشهور الثلاثة التي أعقبت حطين على معظم مدن وحصون مملكة بيت المقدس ومنها حصن جبرين[6] التابع للاسبتارية ولم يبق للصليبيين بعد حطين سوى مدينة صور وستة حصون[7].

كما لعب فرسان الاسبتارية دوراً بارزاً في معركة أرسوف[8]، والتي هزمت فيها جيوش المسلمين ويعد ذلك النصر أول أول انتصار حققه الصليبيون على المسلمين بعد معركة حطين [9].

ثانياً: هيئة الداوية (Templiers):

يرجع الفضل في وضع الأساس لهذه الهيئة الدينية العسكرية إلى هيو دي باينز(Hugue de payens)[10] مع تسعة من زملائه وجميعهم من أصل فرنسي[11]، حيث اتفق هؤلاء الفرسان فيما بينهم على تكوين جماعة أو منظمة مهمتها الدفاع عن الأراضي المقدسة وطرق الحجاج المسيحيين، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من بطريرك بيت المقدس، وأقسم هؤلاء الفرسان بالقسم الكنسي الأول القائم على العفة والفقر والطاعة[12]، كما أقسم هؤلاء الفرسان يميناً بحمل السلاح ضد المسلمين، وتلقبوا بجنود المسيح الفقراء[13] وقد حصل هؤلاء الفرسان عام (512ه/1118م) من الملك بلدوين الثاني على مقر لهم داخل القصر الملكي بالقرب من معبد سليمان لذلك أطلق عليهم فرسان المعبد أو الداوية فيما بعد[14]، وقد حصلت الهيئة على مباركة من بابا الكنيسة عام (522ه/1128م) وبعد أن حازت الهيئة على مباركة الكنيسة واعتُمِدت كمنظمة حربية، عمل هيو على تنظيم الهيئة في فرنسا واتجه إلى إنجلترا لحث الفرسان النبلاء لها

---

[1] سليماني، المرجع السابق، ص36.

[2] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 372/3؛ سليماني، المرجع السابق، ص40.

[3] السرحان، المرجع السابق، ص409.

[4] ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق: سمير شمس، دار صادر، ط1، (بيروت، 2009م)، 1/ 219.

[5] المرقب: اسم الموضع الذي يربض فيه الجند للمراقبة وحماية القلعة وما جاورها وهي بلدة وحصن تشرف على ساحل بحر الشام وفي عام (454هـ/ 1150م) شيد المسلمون فيها الحصن المعروف بالمرقب. يُنظُر: الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، 1977م)، 108/5.

[6] بيت جبرين: بليدة بين بيت المقدس وغزة شيدها الصليبيون في عهد الملك قولك الأنجوي سنة (531ه/1136م) وتبعد عن شرق مدينة عسقلان حوالي 24كلم، وكان الغرض من تشييدها تأمين حدود مملكة القدس من الجهة الجنوبية ضد هجمات حامية عسقلان الفاطمية. يُنظُر: الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 132/3؛ الحموي، المصدر السابق 519/1.

[7] سليماني، المرجع السابق، ص63.

[8] أرسوف: مدينة فلسطينية تقع بين قيسارية ويافا على بعد ثلاثة أميال جنوب قيسارية، في فترة الحروب الصليبية كانت إمارة إقطاعية منحها ملك بيت المقدس لأحد أتباعه ثم سيطر عليها الاسبتارية. الحموي، المصدر السابق 151/1.

[9] رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، (القاهرة، 1994م)، 94/3.

[10] هيو دي باينز: فارس من إقليم شامبني بفرنسا، عمل مع تسعة من زملائه على تأسيس هيئة الداوية، وكان يبلغ من العمر ثماني وأربعين سنة، وقد عاش بالقرب من القسطنطينية ما يقارب من اثنين وعشرين عاماً، وانتخب مقدماً للداوية عام 1119م وتوفي في مايو عام 1136م. الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 346/2؛ هوارث، ستيفن، فرسان الهيكل، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، المركز القومي للترجمة، ط1، (القاهرة، 2013م)، ص48، 49؛ مقامي، المرجع السابق، ص18، 218.

[11] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 346/2.

[12] مقامي، المرجع السابق، ص18.

[13] سالم، المرجع السابق، ص 218.

[14] الرهاوي، لمؤلف مجهول، حولية تعالج أخبار مدينة الرها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية) ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، 1995م)، 104/5.

[1] وأصبحت الهيئة بعد ذلك تضم نخبة من الفرسان النبلاء الذين جمعوا بين الحياة الدينية والعسكرية في الأراضي المقدسة، وقد حازت الهيئة على دعم كبير من ملك بيت المقدس بلدوين الثاني ونبلائه ورجالات الكنيسة بحيث تحصلوا على أوقاف خاصة مما تملكه أيديهم وأصبحت دخولها تدر عليهم أموالاً طائلة[2]، كما أن الحجاج الراغبين في زيارة الأراضي المقدسة من البلدان الأوروبية كانوا يكلفون الهيئات الدينية الاسبتارية والداوية بأن تشتري لهم عقارات في بلاد الشام ليسكنوا بها أثناء وجودهم في الأراضي المقدسة، وكانت تعود ملكية هذه العقارات إلى الهيئات الدينية بعد رحيلهم إلى بلدانهم الأصلية[3]، بالإضافة إلى ذلك فقد حازت هيئة الداوية على أملاك ضخمة في الشام والغرب الأوروبي إما عن طريق الشراء أو على هيئة هبات[4].

ونتيجة لهذا الدعم الكبير شكلت هيئة الداوية بالإضافة إلى الاسبتارية قوة ضاربة ضد المسلمين زمن الحروب الصليبية، وكان فرسانها من أشرس فئات الصليبيين قتالاً ولولا بسالتهم لانتهى الوجود الصليبي في الشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة[5].

أما من حيث التنظيم الإداري للهيئة لا يختلف كثيراً عن تنظيم هيئة الاسبتارية سالفة الذكر نوجزه في النقاط الآتية:

- **السيد الكبير:** ويسمى أحياناً مقدم الهيئة أو معلم الهيكل في القدس، ويشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون رجلاً قوياً ويتمتع بمواصفات القيادة، وله صلاحيات واسعة ولكنها مقيدة في بعض القرارات بموافقة أعضاء مجمع الهيئة، كالقرارات المتعلقة بإعلان الحرب والسلم أو التخلي عن إحدى ممتلكات الجماعة أو التخطيط لحملة أو تغيير وإلغاء أي بند من بنود ميثاق الهيئة [6].
- **المجمع العام للهيئة:** يتألف من أصحاب الوظائف الكبرى فقط باختلاف مجمع الاسبتارية الذي يتألف من جميع أعضاء الهيئة، ويعمل هذا المجلس كاستشاري لمقدم الهيئة[7].
- **ناظر الإقطاعية:** (المراقب) ويلي المعلم أو المقدم في القيادة، و ينوب عنه في غيابه أو مرضه[8] ووظيفة الناظر الإشراف الكامل على أملاك الهيئة، وكذلك هو المسؤول عن المواد الاستهلاكية للهيئة وكانت وظيفته أشبه بوظيفة المفتش في العصر الحديث، ولكل إقليم مراقب أو قائد وأعلاهم مرتبة مراقب بيت المقدس، كما كان يوجد قائد أو مراقب لأنطاكية وطرابلس وكذلك مراقب لمراكز الهيئة في الغرب الأوروبي[9].
- **المارشال:** من المهام الموكلة إليه الإدارة العسكرية للهيئة، وتوفير الأسلحة والخيول والمؤن للمحاربين ويعتبر بمنزلة قائداً أعلى للجيش وهو الذي يعطى الإشارة لبدء القتال وتقع على عاتقه رسم الخطط العسكرية و الاستراتيجية للجيش[10].
- **القمّاش:** لم تكن الوظيفة الموكلة إليه عسكرية ولكنها شديدة الأهمية بالنسبة للهيئة، فهو المسؤول عن ملبوسات أعضاء الهيئة ومفروشاتهم[11].

بعد أن نمت هيئة الداوية وبزغ نجمها وصار لها أملاك شتى في بلاد الشام وأوروبا، وانخرط في سلكها أبناء الملوك والنبلاء والعوام سنوا لأنفسهم قوانين وضوابط لتنظيم عملهم، وكانت هذه القوانين والضوابط في منتهى الصرامة[12]؛ إذ كانوا يعزلون العضو الراغب للانضمام للهيئة لمدة سنة كاملة ليعقد النية فيما نواه ولا يتسرع في اتخاذ قراره، ثم يتلون عليه القوانين بعد ذلك سبع مرات، وكانوا يقولون له في كل مرة احذر لعلك تندم فيما بعد ويتعذر عليك الثبات على هذه القوانين حتى النهاية، وإذا كنت لا تستطيع أن تثبت على ذلك عليك بالرجوع إلى بيتك والعدول عن قرارك، أما من انضم بعد ذلك الاختبار من الأعضاء ونكث بعهده يضرب عنقه بالسيف[13].

---

[1] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 346/2؛ هوارث، المصدر السابق، ص58.

[2] عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص114.

[3] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 345/2.

[4] زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، (موسكو، 1986م)، ص164.

[5] الحويري، المرجع السابق، ص67.

[6] هوارث، المصدر السابق، ص64، 65.

[7] الحويري، المرجع السابق، ص69.

[8] هوارث، المصدر السابق، ص66.

[9] مقامي، المرجع السابق، ص151.

[10] نفسه، ص151.

[11] هوارث، المصدر السابق، ص66.

[12] الرهاوي، المصدر السابق، 104/5.

[13] الرهاوي، المصدر السابق، 105/5.

وكانت عملية قبول العضو الجديد للهيئة تتم بحضور المجلس العام للهيئة، حيث يستشير المقدم المجلس في قبول ذلك العضو وإن تمت الموافقة يركع العضو المنتسب أمام المقدم معلناً الانضمام للهيئة أمامه، ثم يذكره المقدم بقوانين الهيئة وبالصعاب التي قد تواجهه في حالة إخلاله بتلك القوانين فإن قبل الانتساب تتم الموافقة عليه من قبل المجلس العام ويطلب المقدم إقامة الصلاة ويضع رداء الهيئة على كتفي العضو الجديد ويقبله من فمه قبلة الإخاء وتنتهي بذلك مراسم الاحتفال بالعضو الجديد [1].

ويصف لنا المؤرخ الرهاوي شيئاً من بنود هذه القوانين والضوابط إذ يقول بأنه: " لا يجوز لكائن من كان منهم أن يملك شيئاً خصوصياً لا بيتاً ولا ذهباً ولا قناعا، ولا يذهب إلى أي محل كان دون إذن الرئيس ولا يرقد إلا في بيت الرهبان، ولا يأكل على مائدة العوام، وأن يذهب طوعاً إلى حيث يؤمر مهما كلفه ذلك من المشقة، لو أفضى به ذلك إلى الموت، ويلزمه أيضاً أن يوفي بنذره هذا فيخدم في الجندية حباً للدين حتى الممات"[2]، أما بالنسبة للعقوبات التي كانت تصدر بحق فرسان الداوية تختلف بحسب الجرم الذي اقترفه الفارس، فيعاقب مثلاً بالطرد لمدة يوم أو يومين من الهيئة أو الصيام لمدة معينة في حالة الجرائم الصغرى كعصيان أمر القائد وبعض الأمور البسيطة الأخرى[3]، أما في حالة الجرائم الكبرى كالهروب أمام العدو أثناء احتدام المعركة أو التخلي عن قواعد الفروسية أو التآمر على الجيش، يعاقب مرتكبها بعقوبات كالتي توقع على المخالفين للدين والهرطقة[4]، كذلك يعاقب الراهب عندما يقوم بضرب أخيه في الهيئة الهيئة بالصيام لمدة أربعين يوماً[5]، كما نص المرسوم البابوي للهيئة على تجريم الفارس الذي يتخلى عن الهيئة وفي حالة الانتقال من هيئة دينية إلى أخرى لا يتم ذلك إلا بموافقة المجلس العام[6]، ونصت قوانين هيئة الداوية على بعض المواد المتعلقة بالمأكل والملبس، حيث كان الفرسان لا يتناولون اللحم إلا في أيام الأحد والثلاثاء والخميس ويقتصر الأكل على بقية الأسبوع على البيض والجبن والحليب ويشربون الخمر يومياً وقت الغذاء فقط[7]،أما الفائض من الطعام كان يوزع على الفقراء[8].

أما من حيث الملبس فقد نصت قوانين الهيئة بأن يكون لباس الفارس موحد وذا لون أبيض نقش عليه الصليب الأحمر[9]، كما اشترطت الهيئة على أفرادها أن يكون الزي بسيطاً وغير مزين بالفراء الثمين ولا يسمح للفرسان بارتداء لباس سوى تلك التي صنعت من فراء الخراف والماعز تماشياً مع مبدأ التقشف أحد المبادئ الثلاثة التي تأسست عليها الهيئة[10]، وفي حال تَرَفّع الفارس عن ارتداء ذلك الثوب الزهيد وتطلع إلى ارتداء ثوب أجود منه، تقدم له الهيئة رداء من نوع ردئ كنوع من الإذلال[11].

وكانت حياة الفارس داخل الهيئة مقيدة جداً إذ كانت تمنع عليهم كل تسلية دنيوية، فلم يكن بوسعهم مثلاً الصيد بالصقور، أو اللعب بالنرد، أو مشاهدة المسرحيات، وكان الذين يعارضون مخالفة هذه الضوابط تطبق عليهم غرامات حتى لا يتكرر لهم اختراق هذه الضوابط في مرات لاحقة[12].

وقد صنف القانون العسكري للهيئة أفرادها إلى ثلاث فئات، وكان أولى هذه الفئات الفرسان المحاربين ويشكلون العمود الفقري لمحاربي الهيئة ويتم اختيارهم من طبقة النبلاء وهم رأس حربة الجماعة للدفاع عنها وعن الأراضي المقدسة[13]، أما الفئة الثانية والتي تلي الفرسان كانت من الرهبان حملة السلاح ويسمون باسم الرقباء ويتم اختيارهم من طبقة البرجوازية الثرية، ويتميزون على الفرسان بارتدائهم الزي الأسود أو البني وعادة ما كان عددهم يفوق الفرسان بنسبة تسعة إلى واحد، ويمثل هؤلاء الرقباء الجسد للجماعة وكانوا يقومون بتقديم الدعم للفرسان، إذ كان لكل فارس من طبقة النبلاء اثنان من الرقباء يصحبون الفارس إلى ساحة القتال ولا يشاركون في الحرب، وتقتصر مهمتهم على العناية

---

[1] مقامي، المرجع السابق، ص147، 148؛ هوارث، المصدر السابق، ص69.

[2] الرهاوي، المصدر السابق، ص 105/5.

[3] مقامي، المرجع السابق، ص148.

[4] الهرطقة: ظهر مصطلح الهرطقة في المسيحية على كل ما اعتبره الأكثرية خروجاً عن تفاسير وتأملات الكتاب المقدس الكنسي، وبالمفهوم الكاثوليكي المسيحي الهرطقة أي رأي ديني يدان كنسياً على أنه مناقض للأيمان الكاثوليكي، ويُرادف مصطلح الهرطقة في الدين الإسلامي كلمة بدعة أو زندقة للدلالة على نفس المعنى، ووفقاً للنظام الكنسي يعاقب المهرطق بالسجن أو النفي وتحولت هذه العقوبة في القرنين الخامس والسادس عشر إلى الإعدام. ويلتر، الهرطقة في المسيحية، ترجمة: جمال سالم، دار التنوير، (بيروت، 2007م)، ص17، 29، 30.

[5] مقامي، المرجع السابق، ص148.

[6] نفسه، ص148.

[7] الرهاوي، المصدر السابق، 105/5.

[8] مقامي، المرجع السابق، ص155.

[9] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 346/2؛ مقامي، المرجع السابق، ص30.

[10] عطية،على سعود، تاريخ الحروب الصليبية، الشركة العربية المتحدة، ط1، (القاهرة،2010م)، ص134؛ مقامي، المرجع السابق، ص155.

[11] مقامي، نفسه، ص156.

[12] زابوروف، المصدر السابق، ص162.

[13] هوارث، المصدر السابق، ص67.

بأمتعة الفارس وأسلحته[1]، أما الفئة الثالثة فكانت من الرهبان الذين يقومون بالعمل داخل الدير وفي البداية لم يكن للهيئة للهيئة رجال دين يتبعونها، والذين كانوا يقومون بحراسة أعضائها من الناحية الدينية كهنة وقساوسة من كنيسة روما ويرتدون ملابسهم العادية[2]، وينتمي الرهبان الخدم إلى الطبقة الكادحة، ولا ينتمون لعضوية الهيئة ويشتغلون بمقابل أجر وقد يتعرضون للطرد، أما الأماكن التابعة للهيئة يشرف عليها رهبان موثوق بهم وينتمون للهيئة بالعضوية[3].

أما من حيث النشاط الحربي للهيئة فقد لعبت هذه الجماعة المسلحة دوراً عسكرياً بارزاً ومهماً في الدفاع عن الوجود الصليبي في بلاد الشام، حيث امتلكت الهيئة العديد من الحصون والقلاع الهامة في المملكة الصليبية، وقد زودت هيئة الداوية الجيش الصليبي بعدد من الجنود في المعارك أكثر مما كانت تقدمه هيئة الاسبتارية[4]، ففي عام (534ه/1139م) (534ه/1139م) انضم جنود هيئة الداوية إلى جانب الملك فولك الإنجوي[5] (Fulk of Anjou) في المعركة التي دارت بين مملكة بيت المقدس وحامية عسقلان الفاطمية، وقد هلك في هذه المعركة جماعة من فرسان الهيئة[6]، كذلك في عام (583ه/1187م) قدمت هيئة الداوية ثلاثمائة فارس للاشتراك في معركة حطين[7]، ومن المحتمل أن ذلك العدد كان من بيت المقدس فقط، أما البقية من الفرسان فقد كانوا يقومون بعمليات الحماية في القدس نفسها وكانوا منتشرين في الحصون والقلاع[8].

كان لهيئة الداوية دور كبير في فك الحصار عن مدينة صور وكان ذلك بعد معركة حطين بعد ان لجأ إليها الصليبيون ولم يبق لهم في تلك المدة سوى هذه المدينة على الساحل الشامي، إذ عمل صلاح الدين على حصارها إلا أن ذلك الحصار لم يتكلل بالنجاح بسبب استماتة فرسان الداوية على المدينة وكذلك الدعم الأوروبي، الأمر الذي أدى إلى انسحاب صلاح الدين، وفك الحصار عن المدينة، وبذلك بقيت صور موقعاً مهماً للصليبيين على الساحل الشامي في تلك المدة[9].

كما عملت هيئة الداوية في المدة من (615-747ه/1218-1249م) بدور عسكري فعال في الحملات الصليبية على مصر[10] ، كما كان لها دور أيضاً في تحجيم خطر الإسماعيلية على الوجود الصليبي في الشرق[11]، واشتهرت الهيئة العسكرية بشجاعة فائقة واشتهرت بالحرب الهجومية[12]، وإلى جانب هذه الشهرة العسكرية تمتعت الهيئة بشهرة واسعة في الأعمال المصرفية ونصّبوا أنفسهم وكلاء ماليين للصليبيين الزائرين، وصار لهم نشاط مصرفي ضخم وأصبح بوسعهم تمويل الحملات الصليبية[13]، فحملة الملك لويس التاسع تم تمويلها من قبل الداوية وجرى تسديد هذه المبالغ في فرنسا.[14]

ولكن رغم هذه الإيجابيات والدور العسكري الكبير الذي اشتهرت به هذه الهيئات العسكرية إلا أنها مع مرور الوقت تحولت إلى معول هدم للوجود الصليبي في بلاد الشام بسبب غطرسة وتعالي هذه المجموعات المسلحة على سلطة المملكة، إذ أصبحت تلك الهيئات ميليشيات مسلحة لا تخضع لسلطان ملك بيت المقدس وإنما كان السيد الوحيد لها هو البابا[15].

---

[1] مقامي، المرجع السابق، ص149.

[2] هوارث، المصدر السابق، ص67.

[3] مقامي، المرجع السابق، ص149.

[4] نفسه، ص32.

[5] فولك الإنجوي (525-538ه/1131-1143م): هو فولك الخامس أحد كبار بارونات فرنسا، تزوج من ميسلند ابنة الملك بلدوين الثاني الكبرى الكبرى ووريثته في حكم المملكة الصليبية، توج ملكاً على مملكة بيت المقدس وهو في الأربعين من عمره، وفي عهده عمل على إنشاء منظومة واسعة من القلاع لحماية المملكة من الجهة الجنوبية. الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 3/91-93؛ على، عبد الحفيظ محمد، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية، دار النهضة العربية، ط1، (القاهرة، 1984 م)، ص16.

[6] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 3/174.

[7] رانسمان، المصدر السابق، 2/361.

[8] عطية، المرجع السابق، ص135.

[9] السرحان، المرجع السابق، ص32.

[10] نفسه، ص411.

[11] جوانفيل، حياة القديس لويس، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ج 35، (دمشق،1999 م) ، ص168.

[12] رانسمان، المصدر السابق 2/361.

[13] الحويري، المرجع السابق، ص67؛ رانسمان، المصدر السابق 2/361.

[14] السرحان، المرجع السابق، ص411.

[15] رانسمان، المصدر السابق 2/362.

كما رفضت هذه المجموعات المسلحة دفع الضريبة المستحقة عليها للكنيسة، وكذلك كان فرسانها يحاربون مع جيوش الملك كحلفاء متطوعين لا أكثر [1].

وفي أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، أصبحت تلك الهيئات العسكرية أحد عوامل الضعف للمملكة الصليبية في الشرق الإسلامي بعد أن كانت هذه الهيئات أحد الدعائم الأساسية للوجود الصليبي، إذ تخلت تلك المجموعات المسلحة عن هدفها النبيل الذي تأسست من أجله لخدمة الفقراء وحماية الضعفاء، وبدأ الشقاق يظهر بينها[2]، بسبب ما حازت عليه من أموال طائلة وعقارات حيث بدأ التنافس يظهر بوضوح بين هاتين الهيئتين، وقد بلغ هذا التنافس أشده حتى في المسار السياسي لهذه الهيئات العسكرية وما أن تنحاز هيئة إلى فئة معينة حتى تنحاز الأخرى إلى الفئة المضادة ضاربين بذلك مصالح المملكة بعرض الحائط[3]، فمثلاً نجد الداوية تؤيد الصلح مع دمشق، بينما تؤيد الاسبتارية التحالف مع مصر[4]، وتطور النزاع بين هاتين الهيئتين العسكريتين إلى الصدام المسلح عام (648ه/1259م) وانتصر الاسبتارية في هذه المعركة، وفقد الداوية على إثرها عدداً كبيراً من أفرادها، مما اضطر مراكز الهيئة في أوروبا إلى أن ترسل المحاربين لدعم الداوية بعد أن قضوا مصرعهم على يد الاسبتارية، وأصبحت تلك الإمدادات ترسل من الغرب الأوروبي من أجل دعم هيئة على أخرى بعد أن كانت هذه الهيئات وهذا الدعم الغربي موجه ضد المسلمين[5].

ثالثاً: هيئة التيوتون (Teutoniques):

يعد الدور الذي قامت به هذه الهيئة ثانوياً في مسرح الأحداث التي جرت بين المسلمين والفرنج زمن الحروب الصليبية إذا ما قورنت بالهيئتين الكبيرتين الاسبتارية والداوية[6]، ويرجع تأسيس هذه الهيئة التيوتونية لأحد الحجاج الألمان وزوجته حيث قام بإنشاء مستشفى في بيت المقدس خاصاً بالحجاج الألمان والفقراء وكان الغرض من إنشاء ذلك المستشفى تقديم العلاج للمرضى والجرحى الألمان حين عجزوا عن التفاهم بلغة الصليبيين السائدة في تلك المدة وهي اللغة الفرنسية[7] ويبدو أن هذا الحاج الألماني المقيم في بيت المقدس قام ببناء المستشفى في بادئ الأمر على قطعة من الأرض خاصة به، وبعد أن ازداد عدد الحجاج والفقراء الذين يتحدثون باللغة الألمانية حصل على موافقة من بطريرك مملكة بيت المقدس بالموافقة على بناء كنيسة صغيرة بالقرب من المستشفى على اسم السيدة مريم العذراء[8] وفي المرحلة الأولى من إنشائه تحمل تكاليفه الحاج الألماني من ماله الخاص ومع مرور الوقت تبرع بعض الألمان لهذا المستشفى الناشئ بالمال وكرسوا حياتهم لخدمته[9].

يقع هذا المستشفى في الجنوب الشرقي من القدس بالقرب من سكن الداوية وقد أطلق عليه في ذلك الوقت منزل الألمان أو أحياناً مستشفى مارية للتيوتون [10]، وكان المستشفى يخضع لإشراف المقدم الأكبر لهيئة الاسبتارية [11] ويبدو أن خلافاً حصل ما بين هيئة التيوتون والاسبتارية على خلفية هذه التبعية لذلك أصدرت الكنيسة في روما وثيقة عام(538 ه/1143م) منحت فيها استقلالاً جزئياً لهيئة التيوتون على أن يظل الإشراف الاسمي للاسبتارية[12].

وقد كان هذا المستشفى التيوتوني فقيراً وغير ملائم للحجاج الألمان في بادئ الأمر؛ لأنها كانت تعتمد على المساعدات والإعانات التي يقدمها الحجاج الألمان فقط، إذ لم تصبح ألمانيا مركزاً للنشاط الصليبي بعد [13].

استمر هذا المستشفى مباشرة عمله في المدينة، وكان دوره ثانوياً مقتصراً على خدمة الحجاج[1]، وبنجاح صلاح الدين في استرداد بيت المقدس عام (583ه/1187م) كانت نهاية هذا المستشفى الألماني في المدينة[2].

---

[1] الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 387/2؛ رانسمان، نفسه، 362/2.

[2] السرحان، المرجع السابق، ص428.

[3] مقامي، المرجع السابق، ص108.

[4] السرحان، المرجع السابق ص429.

[5] مقامي، المرجع السابق ص109.

[6] الحويري، المرجع السابق، ص69.

[7] مقامي، المرجع السابق، ص 161.

[8] فيتري، جاك دي، رسائل جاك دي فيتري نقلاً عن لغتها اللاتينية ، ترجمة: عبداللطيف عبدالهادي السيد، المكتب الجامعي للكليات (غريان، 2005م)، ص 215.

[9] ضبيع، صلاح، دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام، المكتب العربي للمعارف (القاهرة، 2009)، ص 354.

[10] حسين، حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، دار المعرفة الجامعية، (القاهرة، 1989م)، ص 64-65.
Anne Vidalie, l'histoire des chevaliers Teutonique, Lexpress.Fr pubié le 28/12/2010.

[11] الحويري، المرجع السابق، ص 70.

[12] مقامي، المرجع السابق، ص 162.

[13] براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، (القاهرة، 2001م)، ص328.

بعد أن حشدت القوى الصليبية قواتها للقيام بالحملة الصليبية الثالثة وانخرط الكثير من المحاربين الألمان في صفوفها؛ أصبحت الحاجة ماسة لإنشاء مستشفى يعنى بالجرحى والمرضى الألمان[3]،وتم إنشاء ذلك المستشفى في عام (586ه/1190م) أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا على يد بعض التجار الألمان، وقد عمل فيه الرهبان الألمان الذين كانوا يعملون بالمستشفى الأول الذي أنشئ في بيت المقدس، وتطوع الكثير من النبلاء الألمان في خدمة المرضى والجرحى من بني جنسهم، ولاقى المستشفى الجديد تعاطفاً كبيراً من كبار الصليبيين بعد أن اعترف به البابا كلستين الثالث[4](Celestine III) ومنحه الكثير من الامتيازات، وأصبح ذلك المستشفى مؤسسة رسمية تعنى بعلاج المرضى والجرحى[5]وصار الاسم الرسمي لها بعد ذلك الاعتراف من البابا بهيئة فرسان التيوتون واتخذت من مدينة عكا مقراً لها[6].

كانت الهيئة منذ أن تأسست هيئة عنصرية بامتياز فلا تسمح لغير الألمان من الانتساب لعضويتها، وقد سلكت في ذلك نهج الهيئات الدينية العسكرية الأخرى التي أُنشئت في بلاد الشام إذ نلاحظ أن كل عنصر من العناصر الأوروبية احتفظ بهويته الأولى قبل الاندماج في الهيئات الحربية، فمعظم منتسبي هيئة الاسبتارية من الإنجليز والطليان فيما كان فرسان الداوية أغلبية فرنسية[7].

اتبعت الهيئة فيما يخص الأمور العسكرية والحربية قوانين هيئة الداوية[8]، أما فيما يخص النواحي الاجتماعية والخيرية سارت على نهج قوانين هيئة الاسبتارية[9]، وقد منحت البابوية هيئة فرسان التيوتون امتيازات وإعفاءات على غرار ما كان لهيئة الاسبتارية والداوية، وسرعان ما تحولت هذه الهيئة الجديدة من هيئة خيرية تعنى بشؤون المرضى إلى هيئة عسكرية سارت على نفس خطى الاسبتارية والداوية في محاربة المسلمين وكان هذا التحول في عام (594ه/1198م)[10].

أما من حيث التنظيم الإداري للهيئة كان كالآتي:

- **المقدم:** أو رئيس المنظمة وتتم عملية اختياره عن طريق الانتخاب من قبل مجلس منتخب مكون من ثلاثة عشر عضواً من الإخوة الرهبان، ويبقى الرئيس المنتخب على هرم السلطة في المنظمة مدى الحياة، وبعد أن يتم انتخابه يتسلم خاتم الرئيس وختم المنظمة وكانت لديه راية خاصة به توضع على درعه أو معطفه[11]، ولا تقتصر مهمة الرئيس على تولي القيادة للمنظمة أو الهيئة فقط بل كان بمنزلة قاض يقوم بالفصل في النزاعات التي تقع بين الإخوة الفرسان في الهيئة وكذلك توقيع العقوبات على المخالفين[12].
- **القائد الأعلى:** أو المراقب الأكبر وهو فارس راهب يقوم بدور القائد الأعلى وينوب عن الرئيس للقيام بمهامه في بعض الأحيان كما يشرف عن الإدارة والشؤون المالية والتموين ومخازن الأسلحة[13].
- **المارشال:** وهو القائد الحربي للهيئة والمسؤول عن جميع الفرسان الذين يحملون الأسلحة، وهو المسؤول الأول عن الشؤون الحربية من خيول وبغال وسيوف وخيام وما إلى ذلك، وكان للمارشال نائب يسمى رئيس الفرسان وتنحصر مهمته في إضفاء رتبة الفارس للأعضاء المنتسبين للهيئة كذلك دفع رواتبهم، والإشراف على تقديم العلف للخيول[14].

---

(1) ضبيع، المرجع السابق ص 356، 357.

(2) حسين، المرجع السابق، ص 78؛ براور، المصدر السابق، ص 328.

(3) ضبيع، المرجع السابق، ص 357.

(4) كلستين الثالث: كان يشغل منصب الكرسي الرسولي في روما، وانتخب بابا على كنيسة روما عام (587ه/1191م)، وهو الذي توج الملك هنري ملكاً على الألمان خلفاً لأبيه الإمبراطور فريدريك، وكان ذلك غداة تتويجه بابا عام (587ه/1191م). الصوري، وليم، ذيل تاريخ وليم الصوري، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، 1993م)، ص177.

(5) ضبيع ، المرجع السابق، ص 357.

(6) الحويري، المرجع السابق، ص 70-71.

(7) ضبيع، المرجع السابق، ص 364.

(8) فيتري، المصدر السابق، ص215.

(9) مقامي، المرجع السابق، ص 162.

(10) نفسه، ص 163.

(11) ضبيع، المرجع السابق، ص 364.

(12) نفسه ص 365.

(13) مقامي، المرجع السابق، ص 182.

(14) ضبيع، المرجع السابق، 366.

- يتم اختيار أربعة ضباط برتب عالية من قبل رئيس الهيئة والمجلس العام ليتولى أحدهم الإشراف على المستشفى بينما يعتني الآخر بالملابس والثالث يعتني بالقلاع، أما الأخير فهو المسؤول عن الخزانة[1].
- كان الزي الرسمي لهيئة التيوتون عبارة عن رداء أبيض نقش عليه الصليب باللون الأسود[2]، أما الالتحاق بالهيئة فكانت له شروط واضحة ومحددة، منها أن يكون العضو المنتسب للهيئة من أصل ألماني، وأن يكون العضو ينتمي إلى طبقة النبلاء، وأن لا يكون قد سبق له الزواج، وكان السن الأدنى للقبول في عضوية الهيئة هو خمسة عشر عاماً، وأن يكون العضو المنتسب قوي البنية قادراً على تحمل المشاق، كما يحرم على العضو الجديد والذي قبلت عضويته بالهيئة معاشرة النساء، وفرضت الهيئة على الفرسان المنتسبين لعضويتها حياة الطهر والعفة مدى الحياة، واتسمت حياتهم بالتقشف حتى إن الفارس منهم كان ينام على فراش من القش لأن قوانين الهيئة نصت على ألا يمتلك الفارس شيئاً خاصاً به، وكذلك حرم على الفارس التيوتوني اقتناء الأسلحة المحلاة بالذهب والفضة[3] .
- كما كان للهيئة ثلاثة أنواع من المجالس النوع الأول من هذه المجالس كان ينعقد كل يوم أحد من كل أسبوع ويحضره جميع الإخوة بالهيئة وكانت تتلى عليهم جميع اللوائح والنظم الخاصة بالهيئة، أما النوع الثاني من المجالس فكان ينعقد عقب وفاة رئيس المنظمة لانتخاب رئيس جديد لها وكان هذا المجلس يضم كاهناً وثمانية فرسان، وأربعة أعضاء آخرين من الهيئة، أما النوع الثالث والأخير من هذه المجالس كان ينعقد في يوم 14 سبتمبر من كل عام في مقر المنظمة الرئيسي في مملكة بيت المقدس بمدينة عكا، وكان يحضره كبار الموظفين في الهيئة ورؤساء بيوت المنظمة في أوروبا، حيث تناقش فيه الأمور المتعلقة بالهيئة ويتم فيه تعيين كبار الموظفين للمنظمة[4].
- أما من حيث الدور العسكري الذي قدمته الهيئة للمملكة الصليبية لمجابهة المسلمين لم يكن بحجم دور هيئتي الاسبتارية والدواية، إلا أنها قامت بدعم المجهودات العسكرية للمملكة الصليبية فقد اشتركت عام (615ه/1218م) قواتها ضمن الحملة الصليبية الخامسة على مصر[5].
- رغم أن هيئة فرسان التيوتون كانت مستقرة وتأسست على قوانين هيئتي الداوية والاسبتارية، إلا أن تطورها كان بطيئاً ودورها في الأحداث زمن الحروب الصليبية كان ضئيلاً وثانوياً إذا ما قورنت بسابقاتها، وكذلك ممتلكاتها لم تعادل ممتلكات الداوية و الاسبتارية التي تأسست منذ مدة بعيدة[6] وأيضاً القلعة التي كان يسيطر عليها فرسان التيوتون وهي قلعة مونتوفرات صغيرة لا يمكن مقارنتها بقلاع الداوية كقلعة صفد مثلاً ويرجح المؤرخ يوشع براور عدم تطور الهيئة لصغر حجم مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر[7].
- بعد فتح عكا على أيدي المسلمين عام (689ه/1291م) وانتهاء مملكة بيت المقدس الصليبية في الشرق الإسلامي، غادرت هيئة فرسان التيوتون بلاد الشام وتوجهت إلى أملاكها عبر بحر البلطيق[8].

---

(1) مقامي، المرجع السابق، ص 182.
(2) فيتري، المصدر السابق، ص 216.
(3) مقامي، المرجع السابق، ص 184,183.
(4) ضبيع، المرجع السابق، ص 367.
(5) السرحان، المرجع السابق، ص 411، 412.
(6) الحويري، المرجع السابق، ص 71.
(7) براور، المصدر السابق، ص 331.
(8) الحويري، المرجع السابق، ص 72.

ختاماً توصلت الدراسة للنتائج التالية:

- أوضحت الدراسة أن الهيئات الدينية الصليبية، كانت منذ نشأتها من مفرزات الحركة الديرية البندكتية، وبذلك سارت على نفس الأسس والقوانين المعمول بها في هذه الأديرة، ونتج عن ذلك أن اصطبغ نظامها بصبغة تعد انعكاساً للحياة الدينية داخل الأديرة البندكتية، وبذلك حصلت على رضا البابوية، ودعمها، ومباركتها.
- يتراءى لنا من خلال هذه الدراسة أن تحول هيئتي الاسبتارية وفرسان التيوتون من طابعهما الديني الإنساني؛ لهيئتين حربيتين عسكريتين، فضلاً عن تأسيس هيئة الدواية هيأ لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة تحت إمرتها، ساعدتها على تحقيق أهدافها وأغراضها، وبذلك لعبت هذه الهيئات دوراً مهماً في استمرار وتثبيت الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.
- أظهرت الدراسة أن انحراف الهيئات الدينية الصليبية عن مسارها وقبولهم الهبات والعطايا، جعلها من أغنى التنظيمات الدينية، ومن أهم المؤسسات المالية في العصور الوسطى؛ فتخصصوا في الأعمال المالية المصرفية، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، أصبحت لهم السيادة على المدن الرئيسة في أوروبا الغربية مثل: لندن، وباريس، مما دفع ملوك أوروبا لحلها والقضاء عليها.
- بينت الدراسة أن الهيئات الدينية صليبية في حقيقتها كانت ذات طابع سياسي عسكري "استخباراتي"، تستر بالدين والعمل الخيري الإنساني؛ لتحقيق أهدافها وأطماعها في المشرق الإسلامي.
- قدمت الهيئات الدينية الصليبية خدمات جليلة للبابوية، ونجحت في سد الفراغ في حياة العناصر الصليبية المتواجدة في بلاد الشام، وخاصة بعض الأتقياء والزهاد الذين وجدوا ضالتهم في تلك الهيئات؛ للمشاركة في محاربة الجيوش الإسلامية من خلالها؛ لكونها جمعت بين حياة التعبد والحرب في آن واحد.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري (ت630ه/1232م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: سمير شمس، دار صادر، ط1، (بيروت، 2009م).

- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله، (ت676ه/1228م)، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، 1977م).

- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة، (ت555ه/1160م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة المتنبي، (القاهرة، د.ت)،

- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت 774ه/1372م):، البداية والنهاية، دار المعارف، (بيروت، 1991).

ثانياً: المصادر الأجنبية المعربة:

- براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، (القاهرة، 2001م).

- بريدج، الحروب الصليبية والشرق اللاتيني،ترجمة: أحمد غسان سباتو وآخرون، دار قتيبة، (دمشق، د.ت).
- بنيامين، بنيامين بن بونة التطيليالنباري، رحلة بنيامين، ترجمة: عزاز حداد، منشورات المجمع الثقافي، ط1، (أبوظبي، 2002م).

- جوانفيل، حياة القديس لويس، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ج 35، (دمشق، 1999 م)

- دويل، أودو أوف، رحلة لويس السابع إلى الشرق (ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، 1995م).

- زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، (موسكو، 1986م).

- رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، (القاهرة، 1994م).

- الرهاوي، لمؤلف مجهول، حولية تعالج أخبار مدينة الرها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية) ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، 1995م).

- سميل،ر، سي، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ترجمة: محمد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، ط1، (دمشق، 1985م).

- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: حسين حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة 1991-1994 م).

-، ذيل تاريخ وليم الصوري، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، 1993م).

- فيتري، جاك دي، رسائل جاك دي فيتري نقلاً عن لغتها اللاتينية ، ترجمة: عبداللطيف عبدالهادي السيد، المكتب الجامعي للكليات (غريان، 2005م).

- الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، ط1، (عمان، 1998 م).

- كمبي، جان، الدليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ط2، دار المشرق،(بيروت، 2002).

- هوارث، ستيفن، فرسان الهيكل، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، المركز القومي للترجمة، ط1، (القاهرة، 2013م)،

- ويلتر، الهرطقة في المسيحية، ترجمة: جمال سالم، دار التنوير، (بيروت، 2007م).

ثالثاً:المراجع العربية:

- حسين، حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، دار المعرفة الجامعية، (القاهرة، 1989م).

- الحويري، محمود محمد، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، (القاهرة، 1979م)،

- الحناوي، مصطفى محمد، الفرسان الاسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، مكتبة الرشد، (الرياض، 2004م).

- سالم، السيد عبدالعزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، (الاسكندرية، 1966).

- السرحان، موضى بنت عبدالله، تنظيمات الصليبيين في مملكة بيت المقدس وأثرها على أوضاعهم في بلاد الشام، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ط1، (الرياض، 2006 م).

- ضبيع، صلاح، دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام، المكتب العربي للمعارف (القاهرة، 2009).

- عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، (بيروت، د.ت).

-ـــــــ، أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، ط6، (القاهرة،1991م).

- ـــــــ، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 2010م).

- عبد العزيز، فتحي السيد، أشرف صالح، الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية، دار ناشري للنشر الالكتروني، ط1، (الكويت، 2013م).

- العريني، السيد الباز، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية،ج1، (بيروت، 1986م).

- عطية، على سعود، تاريخ الحروب الصليبية، الشركة العربية المتحدة، ط1، (القاهرة،2010 م).

- على، عبد الحفيظ محمد، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية، دار النهضة العربية، ط1، (القاهرة، 1984 م).

- عمران، محمود سعيد، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، (القاهرة، 1998م)،

- المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط2، (تونس، 1982م).

- مقامي، نبيلة إبراهيم، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة، 1994 م).

رابعاً: المراجع الأجنبية:

-Anne Vidalie, l'histoire des chevaliers Teutonique, Lexpress.Fr pubié le, 28/12/2010.

خامساً: الرسائل العلمية:

-سليماني، سامية، النشاط الصليبي لهيئة الاسبتارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، العام الدراسي 2001/2000م.